

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين، باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا وحبیب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين، سيما خليفة الله في الأرضين، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

موقع العفو والمغفرة وإشراك الناس في صناعة القرار، في السلم الاجتماعي وتأثير مقاصد الشريعة في قاعدة دوران الأمر بين التعيين والتخير

(٩)

قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾^(١)

بصائر النور في آية الاستشارة واللين

العفو والمغفرة والاستشارة من أسس السلم الأهلي وتماسك النسيج الاجتماعي

ومن البصائر المذهلة في الآية الكريمة أن الأحكام المذكورة فيها والمنطلق لتلك الأحكام تعد من أهم أسس (السلم الأهلي) و(تماسك النسيج الاجتماعي) وتقوية حمة الاخوة ووشائج الصلة بين القيادة الإسلامية والمجتمع وبين أفراد المجتمع بعضهم مع بعض.

وذلك ما يكشفه لنا بوضوح شأن نزول الآية الكريمة وكيفية معالجة الرسول ﷺ للخيانة الجماعية التي حصلت في جيشه يوم أحد، والأوامر القرآنية الصريحة في هذا الحقل...

خيانة الجنود في أحد، وموقف الرسول ﷺ النادر المذهل!

فقد خان الضباط والجنود رسول الله ﷺ بالخيانة العظمى وسببت مخالفة الرماة للرسول ﷺ وتركهم مواقعهم العسكرية في ثنية الجبل، تعرّض الجيش الإسلامي لأكبر نكسة بل وهزيمة - مبدئية - طوال حياة النبي ﷺ فقد قتل نتيجة ذلك سبعون من المسلمين وهو عدد كبير جداً في حد ذاته فكيف بالقياس إلى عدد المسلمين؟ كما كسرت رابعة رسول الله ﷺ وشج وجهه الشريف وكادوا يقتلونه لولا صمود أسد الله الغالب علي ابن أبي طالب ﷺ ثم ثلة قليلة جداً من أبطال المؤمنين بينهم (نسيبة) المرأة التي خلدت اسمها في التاريخ بأحرف من نور قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢)

ثم أعاد الله تعالى الكرة للمؤمنين فانتصروا على الكفار انتصاراً باهراً.

(١) سورة آل عمران: آية ١٥٩.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٥٢-١٥٣.

وهنا كان الموقف الغريب بل الفريد على مدى التاريخ الإنساني، تجاه أولئك الذين خانوا الله ورسوله طمعاً في بعض حطام الدنيا وسببوا تلك الويلات والفجائع وكان الموقف هو ما صرحت به الآية الشريفة عبر تشريع أحكام مفتاحية ثلاثة لا تتجانس مع جرميتهم وخيانتهم بما هي هي أبداً:

أولاً: العفو عنهم.

ثانياً: الاستغفار لهم.

ثالثاً: مشاورتهم في الأمر.

أ- و(العفو عنهم) يرسم إطار العلاقة بينه ﷺ وبينهم.

ب - أما (الاستغفار لهم) فيحدد مسؤولية أخرى فوق ذلك وهي مسؤولية الوساطة بينهم وبين الله تعالى؛ فإن الشخص قد يعفو عن ظلمه، كما لو اغتابه مثلاً، فيعفو عنه تكزماً إلا أنه يبقى حق الله تعالى الذي لا يحى إلا بالتوبة فانه لا يجدي لرفع العقوبة الآخروية مجرد عفو ذي الحق، إذ ههنا حقان: حق الله وحق الناس، وحيث كانت جرميتهم كبيرة جداً احتاجوا إلى أن يتوسط الرسول ﷺ ليعفو الله عنهم.

ج- ولم يكتفِ الوحي الإلهي بهذين القرارين فقط بل وبعد ذلك كله كان (الأمر بإشراكهم في صناعة القرار) في أعلى مستويات القيادة **﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾** إذ المراد بالأمر الشؤون العامة مطلقاً أو شؤون الحرب خاصة، وقد فصلنا في كتاب شورى الفقهاء الأدلة على الأول وأن المراد كافة الشؤون العامة لا أمر الحرب فقط، على أنه لو كان المراد أمر الحرب فقط لكفى في الدلالة لأنه أمر خطير حقاً ومع ذلك **﴿وَرَدَّ الْأَمْرُ بِأَنْ يَسْتَشَارُوا جَمِيعاً فِيهِ﴾**.

ومن الواضح أن النبي ﷺ كان بمقدوره أن يعاقبهم جميعاً، وكان العقل والنقل والأعراف من كل الملل والنحل، معه في ذلك، إلا أن الرسول ﷺ جاء بأمر الله تعالى بمنهج يتسامى على مناهج البشر كافة: **﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾** وبذلك ونظائره أرسى الرسول ﷺ قاعدة من أعلى وأجلى وأهم قواعد السلم الاجتماعي وتقوية النسيج الوطني.

قصة القائد الذي أحرق رسائل خيانة ضباطه فاستماتوا في القتال والنضال!

وينقل لنا التاريخ حادثة أخرى مبهرة تأسى فيها أحد القادة العظام ببعض ما صنعه رسول الله ﷺ فحصل على أعظم النتائج: فقبل أن يلتقي الجيشان خطط قادة الجيش المعادي لتحطيم الجيش الإسلامي من داخله وتفقيته من قلبه وجوهره فوضعوا خطة مركبة معقدة كان من أعمدها بث الرعب في الجيش الإسلامي عبر بعض جنود الطابور الخامس فوصلت الأخبار مضخمة عن استعدادات العدو وعن الإمدادات التي ستصل له تباعاً، ومن جهة أخرى راسل قائد جيش الأعداء مجموعة من أهم قادة الجيش الإسلامي ووعدهم أنهم إن قاموا بانقلاب داخلي على قائد الجيش وأغاروا عليه ليلاً واعتقلوه ثم سلموه له أن يدفع لهم من الأموال الطائلة كذا وكذا وأن يقلدهم مناصب رفيعة جداً بعد الفتح..

ولكن قائد الجيش الإسلامي تمكّن بما له من العيون من اكتشاف الرسل وجرى اعتقالهم ومعهم الرسائل المتبادلة وفيها

رسائل من عدد من قادة الجيش صريحة في الخيانة والضلوع في المؤامرة...

وههنا أدركت القائد الحكمة فاستدعى القادة كلهم على عجل في خيمة القيادة واحاطها بحراسة مشددة ثم أحضر جراباً^(١) وضعه في منتصف الخيمة وخطب فيهم خطبة إيمانية ثم ألقى قبلته مُدَوِّية فقال هذا الجراب يحتوي على رسائل من عدد منكم تشهد بالخيانة العظمى وكما تعلمون فإن جزاء ذلك في كل الأعراف هو القتل، لكنني لا أفرط بصداقة عمرٍ طويل معكم لمجرد زلة حصلت منكم! أعلموا إنني حتى لم أفتح أختام هذه الرسائل لأعلم أسماء الخونة وذلك كي لا يتغير قلبي عليهم!! والآن سأمر أحد الحراس لكي يحرق الجراب بما فيه كي يختفي آخر أثر من الماضي المقيت ولنبدأ من جديد بعزيمة أقوى وأخوة أكبر لدحر جيش الأعداء!!

ومن الواضح أن ذلك الموقف الشهم النادر بعث في نفوس أولئك القادة أكبر الاعصارات النفسية المتشابكة: الندامة، الحسرة، الإعجاب المذهل بهذا القائد النادر، والإصرار الكبير على التعويض عن تلك الخيانة الكبرى.. وهكذا استبسلوا في المعركة وانتصروا انتصاراً ساحقاً. وفي المثل (العقدة التي تنحل باليد لا يصح أن تُعمل فيها الأسنان)!

ثم أن من الضروري أن يتحول (العفو عن مَنْ زلت أقدامهم والمغفرة لهم ومشاورتهم في صنع القرار) إلى منهج في الدولة والأمة ومؤسسات المجتمع المدني والشركات وغيرها، وعندئذٍ ستجدون أن الأرض تحولت إلى ما يشبه الجنة! غير أن من الواضح أن ذلك المنهج لا يشمل الذين يرجعون إلى ففة، كداعش والبعث، إلا لدى توفر شروط موضوعية خاصة تقطعهم عن فئتهم من دول راعية للإرهاب وغيرها وحسب تشخيص أكثرية أهل الحل والعقد ومجلس الأمة والفقهاء المراجع.

مقاصد الشريعة: في الدوران بين التعيين والتخيير

سبق الكلام عن مناحي من تجليات تأثيرات مقاصد الشريعة على عملية الاستنباط الفقهي والأصولي والكلامي وفي بُعدي التفسير وفقه الحديث، وغير ذلك، بشكل غير مباشر كما سبق بيانه، ونضيف:

إن من ثمرات مباحث مقاصد الشريعة وتجلياتها ما يظهر في تحديد مصداق (التعيين) في قاعدة (الدوران بين التعيين والتخيير) على خلاف ما هو المعهود في بعض تطبيقات القاعدة فقهاً وأصولياً إذ تفيدها المقاصد وجهاً آخر مزاجاً للوجه الذي يذكر عادة لترجيح هذا الطرف باعتباره ذا مزية محتملة على الطرف الآخر المساوي للطرف الأول في أحسن الفروض، ولا بد لتوضيح ذلك من التمهيد ببيان القاعدة فنقول:

إذا دار الأمر، من جهة عجز المكلف في مرحلة الامتثال عن الجمع بين الأمرين أو لعدم إمكان الجمع بينهما ذاتاً، بين امتثال هذا الفرد من الواجب أو ذاك الفرد وكان أحدهما يتمتع بمزية محتملة على الآخر وجب حسب هذه القاعدة العمل به خاصة لأنه واجب على كل تقدير وبه يتحقق الامتثال على مختلف الفروض عكس الآخر.

فلو وجد غريقان أحدهما جندي عادي والآخر من المحتمل أن يكون قائد الجيش (الذي لو غرق لانهار الجيش كله) فانه لو عُلِمَ أنه قائد الجيش وجب إنقاذه خاصة - مادام الشخص لا يمكنه إنقاذهما معاً - ولم يكن مجال للقاعدة^(٢) إنما الكلام في صورة الاحتمال إذ هنا يحدث الدوران بين تعيين إنقاذ هذا إن كان قائد الجيش أو التخيير بينه وبين إنقاذ الآخر إن كان

(١) كيساً كبيراً.

(٢) إلا لو شك في أصل مرجحية كونه قائداً واحتملت المدخلية فقط فان هذا مصداق آخر من مصاديق دوران الأمر بين التعيين والتخيير.

جندياً عادياً مثله، فهنا يحكم العقل - كما ذكروا - بلزوم إنفاذ المحتمل كونه قائداً للجيش.

إذا عرفت ذلك فلنستعرض عيّنات معبّرة عن الموازن لمرجحية (الأعلمية) - في المثال المشهور - في معادلة الدوران بين التعيين والتخيير:

تقليد الأعلم أو الأورع؟

أ- إذا دار الأمر بين (تقليد الأعلم) و(تقليد الأورع) فإن المرّجح لتقليد الأعلم هو أقربيه نظره للإصابة والمطابقة للواقع^(١) لذا استند البعض في تعيّن تقليده إلى ذلك ولو لاحتمال مدخلية الأقربيه للإصابة في تعين تقليده.

ولكننا إذا استضأنا بفقّه مقاصد الشريعة فإننا سنجد جهة أخرى واقعية تساوي، إن لم ترجح على، جهة الأقربيه وهي جهة (أشدية تثبّت الأورع) المقتضي للتحرز عن الخطأ بالتحقيق والتدقيق الأكثر والمانع عن كونه جريزياً يقتحم في مخالفة المشهور أو في الفتوى بقول مطلق بجسارة وجرأة توقع صاحبها، في الكثير من الأحيان، في المخالفة.

ولئن كان مرجع ذلك إلى مقابلة جهة الأقربيه في الأعلم بجهة أقربيه من نوع آخر في الأورع، فإن الجهة الأخرى المزاحمة في العيّنات الآتية هي من سنخ آخر فلاحظ:

ب- إذا دار الأمر بين تعين تقليد الأعلم والتخيير بينه وبين تقليد العالم، فإن جهة الأقربيه تراحم بجهة التيسير في التخيير بينهما وهي جهة يريدّها الله تعالى بصريح الآية الشريفة ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾^(٢) عكس ملاك الأقربيه للواقع الذي لم يذكر المشهور له دليلاً صحيحاً سنداً صريحاً دلالة!

وعلى أي فإن من البديهي أن الضغط على الناس لتقليد الأعلم في الفقه أو للرجوع إلى الأعلم من الأطباء أو سائر الخبراء، تضيق عليهم وتشديد إذ الناس يراجعون الفقيه أو الطبيب وسائر الخبراء (والجامع هو كونه أهل الخبرة كما أن الدليل مشترك وهو رجوع الجاهل للعالم)، لجهات أخرى منضمة لا مجرد أعلميته، فيراجعونه مثلاً لعلميته زائداً قرب عيادته مثلاً أو أرفقيته بالمريض أو لصداقته معه أو قرابته أو غير ذلك، وكذلك الرجوع للفقيه فان من (التيسير على الناس) السماح لهم بتقليد غير الأعلم (الجامع للشرائط طبعاً) لجهات أخرى يرونها دخيلة في وجه انتخابهم له ككونه أورع أو كونه شديد الاهتمام بتربية الناس أو بالخدمات والنشاطات والمؤسسات أو شبه ذلك.

الدراسة عند الأعلم أو الأفضل الأكمل؟

ج- إذا دار الأمر بين (الدراسة عند الأعلم) أو (الدراسة عند الأفضل تربيةً للطلاب والأكثر تواضعاً والأحسن أخلاقاً) فإن جهة الأقربيه في الأعلم الموجبة لاقوائية (التعليم وأفضليته) تراحم بجهة التميّز الأخلاقي الموجبة لاقوائية (التزكية والتربية) قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٣) ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ

(١) مع قطع النظر عن المناقشة في ذلك صغرى: بأنه لا إطلاق لذلك إذ كثيراً ما يكون رأي المفضل موافقاً للأعلم من الأموات أو للمشهور أو للاحتياط أو لغير ذلك، وكبرى: بانه لا يدل على أكثر من الرجحان دون الوجوب مع قطع النظر عن الإشكال أعلاه - راجع للتفصيل (تقليد الأعلم وحجية فتوى المفضل).

(٢) سورة البقرة: آية ١٨٥.

(٣) سورة البقرة: آية ١٢٩.

د- إذا دار الأمر بين (الطبيب الأعمى) وبين (الطبيب الأرقى بالمرضى) كانت الأرفقية جهة منافسة لجهة الاقربية وذلك أن بعض الأطباء عنيف مع المريض إذ انه يختار الأدوية العنيفة الصعبة أو يختار أصعب الحلول على أسهلها (فيرجح العملية الجراحية على غيرها مثلاً) عكس الآخر فانه وإن كان غير أعلم فرضاً لكنه أرقى بالمرضى لذا نجدهم قد يرجحونه.

انتخاب الرئيس الأعمى أو الأكثر استشارة؟

هـ - إذا دار الأمر بين انتخاب الرئيس (رئيس الجمهورية، أو الحزب أو العشيرة أو النقابة والاتحادية أو الشركة أو أية مؤسسة أخرى) الأعمى وبين انتخاب الرئيس الأكثر استشارة من الأعوان والمستشارين والناس، فانه لا شك في أن أكثرية المشورة تعد جهة مزاحمة لجهة الأقربية الناشئة من الأعلمية، إذ أنها تورث جهة أقربية أخرى ناشئة من تلاقح العقول.

القائد الأعمى أو الأكثر اهتماماً بالناس؟

و- إذا دار الأمر بين انتخاب القائد الأعمى وبين انتخاب القائد الأكثر اهتماماً بالناس وطبقاتهم واحتياجاتهم (من طرق ومواصلات وكهرباء وماء وغيرها) و(من فقراء وأرامل وأيتام وغيرهم) فلا شك أنه لا يصح حينئذٍ القول بأن قاعدة الدوران تقتضي تعيين اختيار الأعمى بل على العكس تقتضي تعيين اختيار الأكثر اهتماماً بالناس.

التحالف مع الأعمى أو مع الأقوى؟

ز- إذا دار الأمر بين التحالف مع الأعمى أو التحالف مع الأقوى (كدولة أو عشيرة أقوى وأخرى أعمى) فالأمر كذلك. ولا يخفى أن درجات الأعلمية ودرجات الجهة الأخرى المزاحمة، هي ذات مدخلية أيضاً في تعيين هذا الطرف أو ذاك، رجحاناً أو وجوباً مما يحتاج كل ذلك وما سبقه إلى عقد دراسة خاصة فقهية - أصولية على ضوء معطيات باب التزاحم، حول ذلك وذلك ما لعلنا نوفق له في مباحث الأصول: كتاب التزاحم.

ولنذكر مثلاً من نوع آخر:

تعيين المسؤول المتشدد أو الطيب المتسامح؟

ح - إذا دار الأمر بين تعيين جهاز ضريبي في الوزارة خبير جداً بطرق استخراج الضرائب من الناس بشتى الطرق كما هو خبير أيضاً بكافة سبل التحايل للفرار من الضريبة (بدءاً من ميزانية الكهرباء في منزل الفقراء ووصولاً إلى المحلات والشركات التي قد تتلاعب بالأوراق لتظهر الأرباح أقل فتكون الضرائب أقل بالتبع) وبين خبير آخر متسامح متساهل لا يعصر الناس عسراً بل يمشي على الطرق المعهودة (وهذا كله على فرض صحة الضريبة وقد سبق مراراً أنها بدعة وحرام شرعاً، وقد ورد عن نوف البكالي في حديث: إن أمير المؤمنين عليه السلام قال له: «يَا نَوْفُ، إِنَّ دَاوُدَ عليه السلام قَامَ فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: إِنَّهَا لَسَاعَةٌ لَا يَدْعُو فِيهَا عَبْدٌ إِلَّا اسْتَجِيبَ لَهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَشَاراً، أَوْ عَرِيفاً...»^(١) لكن الكلام فيمن يدعونون

(١) سورة آل عمران: آية ١٦٤.

(٢) الإمام علي عليه السلام، نصح البلاغة، دار الهجرة للنشر، قم، عدد الأجزاء ١، ص ٤٨٦.

بضرورة الضريبة، بل يمكن فرض الكلام فيما لو أمكن كلا الأمرين في الضرائب الشرعية الأربع: الخمس والزكاة على المسلمين والجزية والخراج على الكفار) فايهما الأرجح: المتشدد في استخراج الضريبة أو الأرفق بالناس؟ لا شك أن الدول ترجح المتشدد إذ الدول هي المصداق الأبرز للجهات الجشعة إلى الأموال والتي لا تتوانى عن عصر الناس عصرًا كي تحصل على المزيد ثم المزيد من الأموال.

لكن الشرع يرحح الثاني - المتسامح الميسر - كما سيأتي، بل والعقل أيضاً إذ المعادلة عقلاً هي (الإنسان أولاً) وأما معادلة (المال أولاً) فهي معادلة بهيمية صرفة وقد جاء في الإنجيل «السَّبْتُ إِنَّمَا جُعِلَ لِأَجْلِ الْإِنْسَانِ، لَا الْإِنْسَانُ لِأَجْلِ السَّبْتِ»^(١) والمعنى دقيق وعميق ولطيف، ويؤيده الاعتبار فليس من الإنجيل المحرف - قاعدةً والله أعلم فتدبر.

قواعد علوية ﷺ ذهبية في جباية الصدقات والضرائب

والرواية الآتية: تعد من أروع الروايات في هذا الحقل قال أبو عبد الله «بَعَثَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ مُصَدِّقًا مِنَ الْكُوفَةِ إِلَى بَادِيَتِهَا فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ انْطَلِقْ وَعَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا تُؤْثِرَنَّ دُنْيَاكَ عَلَى آخِرَتِكَ، وَكُنْ حَافِظًا لِمَا ائْتَمَنْتَكَ عَلَيْهِ، رَاعِيًا لِحَقِّ اللَّهِ فِيهِ، حَتَّى تَأْتِيَ نَادِيَّ بَنِي فُلَانٍ، فَإِذَا قَدِمْتَ فَانْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَبْيَاتَهُمْ، ثُمَّ امْضِ إِلَيْهِمْ بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ حَتَّى تَقُومَ بَيْنَهُمْ وَتُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قُلْ لَهُمْ: يَا عِبَادَ اللَّهِ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ اللَّهِ لِيَأْخُذَ مِنْكُمْ حَقَّ اللَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ، فَهَلْ لِلَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتُؤَدُّونَ إِلَيَّ وَلِيِّهِ؟ فَإِنْ قَالَ لَكَ قَائِلٌ: لَا، فَلَا تُرَاجِعْهُ، وَإِنْ أَنْعَمَ لَكَ مِنْهُمْ مِنْهُمْ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ أَوْ تَعِدَهُ إِلَّا خَيْرًا.

فَإِذَا أَتَيْتَ مَالَهُ فَلَا تَدْخُلْهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَإِنَّ أَكْثَرَهُ لَهُ، فَقُلْ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَتَأْذُنُ لِي فِي دُخُولِ مَالِكَ، فَإِنْ أَذِنَ لَكَ فَلَا تَدْخُلْهُ دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ فِيهِ وَلَا عَنِفٍ بِهِ، فَاصْذَعْ الْمَالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيْرُهُ أَيَّ الصَّدْعَيْنِ شَاءَ، فَأَيُّهُمَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِضْ لَهُ، ثُمَّ اصْذَعْ الْبَاقِيَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيْرُهُ فَأَيُّهُمَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِضْ لَهُ، وَلَا تَزَالْ كَذَلِكَ حَتَّى يَبْقَى مَا فِيهِ وَفَاءً لِحَقِّ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ مَالِهِ، فَإِذَا بَقِيَ ذَلِكَ فَاقْبِضْ حَقَّ اللَّهِ مِنْهُ وَإِنْ اسْتَقَالَكَ فَأَقِلْهُ، ثُمَّ اخْلِطْهَا وَاصْنَعْ مِثْلَ الَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلًا حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ اللَّهِ فِي مَالِهِ»^(٢) وفي هذه الرواية إضاءات وإرشادات وقواعد هامة:

أ- «فَانْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَبْيَاتَهُمْ» عكس ما نرى من جباة الضرائب في الكثير من الدول إذ يقتحمون البيوت أو الشركات أو غيرها دون استئذان أو إذا كان مع إذن فبطريقة مفاجئة مربكة لأصحاب البيوت أو المحلات والشركات! المطلوب هو الابتعاد عن هتك حمى الناس وحرمتهم بالنزول خارج منازلهم (أو محلاتهم) بل خارج أحيائهم عند مجرى النهر فقط!.

ب- «بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ» غير متكبر عليهم ولا متجبر بل كن وقورًا كوقار العلماء، ذا سكينة كسكينة الأولياء...

ج- ثم - «ثُمَّ قُلْ لَهُمْ: يَا عِبَادَ اللَّهِ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ اللَّهِ لِيَأْخُذَ مِنْكُمْ حَقَّ اللَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ، فَهَلْ لِلَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتُؤَدُّونَ إِلَيَّ وَلِيِّهِ؟» وهذا السؤال وبهذه الطريقة الطيبة البسيطة يكشف عن أصل أصيل أصله الدين

(١) إنجيل مرقس، آية ٢: ٢٧.

(٢) ثقة الإسلام الكليني، الكافي، دار الكتب الإسلامية، طهران، ج ٣ ص ٥٣٦.

الإسلامي في شتى مناحي الحياة ومنها الحياة الاقتصادية التي تعد من أخطر المناحي والتي يكثر فيها الكذب والغش عادة، وهو أصالة الصحة في عمل المسلم بل وفي قوله أيضاً، وهذا الأصل يؤكد الاعتماد على جواب الناس - من مزارعين ورعاة ومثلاك للزكاة وغيرها، كقاعدة عامة.

د- «فَإِنْ قَالَ لَكَ قَائِلٌ لَا فَلَا تُرَاجِعْهُ» وهذا نظير قاعدة (هن مصدقات) وهي (هم مصدقون) وإن كان الأمر مما يمكن استجلاء حقيقة حاله بالتحقيق وليس مما لا يُعلم إلا من قبله أو قبلها، وذلك كله من أبرز مظاهر (اللين) في الإسلام في تجلياته القانونية والحقوقية.

هـ - «فَإِذَا أَتَيْتَ مَالَهُ فَلَا تَدْخُلْهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَإِنَّ أَكْثَرَهُ لَهُ» وفي هذا درس كبير للحكومات والسلطات والأقوياء بأن يراعوا حق الضعفاء إلى أبعد حد، حتى لو كانوا شركاء في الحق، لكن مادام أكثر الحق للغير فلا يجوز للحاكم وعماله حتى أن يدخل إلى ساحة المال المشترك!

و - «فَاصْذَعِ الْمَالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيْرُهُ أَيُّ الصَّدْعَيْنِ شَاءَ، فَأَيُّهُمَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِضْ لَهُ، ثُمَّ اصْذَعِ الْبَاقِيَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيْرُهُ فَأَيُّهُمَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِضْ لَهُ، وَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَبْقَى مَا فِيهِ وَفَاءً لِحَقِّ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ مَالِهِ» وتخيير المالك في الاختيار وبتلك الطريقة المتدرجة المتصاعدة دليل آخر على منتهى الرحمة واللين واللفظ في التشريعات الإسلامية.

ز- «وَإِنْ اسْتَقَالَكَ فَأَقِلَّهُ» وذلك منتهى اللطف والرفق، فإن الإقالة لدى الاستقالة من مكارم الأخلاق وفضائل السلوك والسير، وقد صاغها الإمام عليه السلام وهنا صياغة قانونية حقوقية، وظاهر النهي انه بنحو القضية الحقيقية وإلا فبجهة مولوية. ولنختم الكلام بالإشارة إلى حادثة ذات دلالة بليغة على مدى التأثير الكبير الذي تركه الرحمة والإحسان على الإنسان مما قد يكون السبب الأساس في تغيير مستقبل إنسان تماماً وإنقاذه من الضلال إلى الهدى ومن الخلود في جهنم إلى الجور في جنات الله الواسعة:

يهودي يسرق يوماً ثم يُسلم بمفاجأة!

فقد نقل أن يهودياً من عائلة يهودية معروفة اسلم وكان ذلك مثار استغراب لأن اليهود قلما يسلمون عكس النصارى وغيرهم إذ ما أكثر من أسلم منهم، وكان اليهود، إلا من خرج بالدليل، على مر التاريخ العدو الأول للإسلام والمسلمين قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(١).

نعم يستثنى من ذلك كله فترة من زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حيث انه صلى الله عليه وآله وسلم بسلسلة من مواقفه وأخلاقه الربانية المذهلة أحدث توجهاً هائلاً في اليهود حتى ورد في الرواية أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ وَعَلَيَّ صلى الله عليه وآله وسلم أَوْلَى بِهِ مِنْ بَعْدِي، فَقِيلَ لَهُ: مَا مَعْنَى ذَلِكَ؟ فَقَالَ: قَوْلُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم مَنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضَيَّاعًا فَعَلَيَّْ، وَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرِثَتِهِ فَالرَّجُلُ لَيْسَتْ لَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَلَايَةٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ وَلَيْسَ لَهُ عَلَى عِيَالِهِ أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ إِذَا لَمْ يُجْرِ عَلَيْهِمُ النَّفَقَةَ، وَالنَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليهما السلام وَمَنْ بَعْدَهُمَا أَلَزَمَهُمْ هَذَا، فَمِنْ هُنَاكَ صَارُوا أَوْلَى بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَمَا كَانَ سَبَبُ إِسْلَامِ

عَامَّةِ الْيَهُودِ إِلَّا مِنْ بَعْدِ هَذَا الْقَوْلِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِنَّهُمْ آمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَعَلَى عِيَالَتِهِمْ»^(١) .. والبحث عن اليهود بحاجة إلى مقام آخر فلنعد إلى القصة السابقة:

عندما أسلم ذلك اليهودي المعروف، سأله البعض عن السبب فأجاب: كنت طفلاً صغيراً وكانت أمي ترسلني إلى المحل القريب لشراء الحاجيات المنزلية يومياً، وكان في ركن من المحل حلويات معروضة للبيع (شوكولاته) فكنت أنتهز فرصة غفلة صاحب المحل بينما هو يعد الحاجيات وأسرق قطعة حلوى أو شوكولاته، يومياً، واستمرت على تلك الحال شهراً أو أكثر وأنا معجب بشطارتي ومنذهل لغباء صاحب المحل!!

ثم في يوم من الأيام غفلت عن سرقة القطعة من الحلوى فأخذت الحاجيات وخرجت وإذا بي أجد صاحب المحل يناديني وييده قطعة حلوياتي المفضلة: تعال يا بُني وخذ قطعة الحلوى هذه، فقد نسيت أن تأخذها اليوم!

يقول اليهودي: أذهلني تصرفه وأندهشت لسماحته وأخلاقه وطيبته وإحسانه، وأنا الذي أسمع عن المسلمين كل سوء! ويستمر اليهودي قائلاً: غرقت في بحر من الخجل وأخذت الحلوى على استحياء وعجل! وأنا معجب لغفلي أنا وذكائه هو! ثم أن ذلك أحدث في كياني هزة عنيفة وجعلتني أشكك في كل ما كان يقوله أبي وأمي وقومي عن الإسلام وقررت أن أحقق عن الإسلام أكثر عندما أكبر، وهكذا كان فقد أسلمت بعد تحقيق ماضي ولكن الزناد القادح كان هو موقف إنساني تجلت فيه الرحمة واللين والإحسان في سلوك رجل مسلم واحد!

تصوروا: لو كان المسلمون جميعاً كذلك؟!

أقول: تصوروا لو كان المسلمون جميعاً كذلك، بل لو كان أكثرهم كذلك، بل لو كان عشرون بالمائة منهم كذلك: الطبيب والمحامي والمهندس، والفلاح والبقال والعمارة، والجامعي والحوزوي، والوزير والسفير والأمير والرئيس والقائد والمقود.. ألم يكن يتحول وجه الأرض؟ وألم تكن نشهد من جديد تجلياً آخر لقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾^(٢) والمفتاح لذلك كله هو أن ندعن بأن (الرحمة) بفروعها ومنها (الإحسان) هي من أهم مقاصد الشريعة، وأن نعمل على طبق ذلك أيضاً.. أليس كذلك؟

قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

وقال جل اسمه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾^(٣)

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد واله الطيبين الطاهرين

(١) ثقة الإسلام الكليني، الكافي، دار الكتب الإسلامية، طهران، ج ١ ص ٤١٦.

(٢) سورة النصر: آية ١-٣.

(٣) سورة هود: آية ١١٨-١١٩.